الأصولية الإسلامية بين العنف والديمقراطية

المؤلف: ألبرشت متسكر

الطبعة: الأولى ٢٠٠٠

الناشر: لاموف، غوتينغن ـ ألمانيا

أكثر من عشرين سنة يفكر باحثون، وصحفيون، ومستشارون سياسيون جاهدين في «الأصولية الإسلامية» التي تجسدت في مخيلة الغرب بآية الله الخميني والثورة الإسلامية الإيرانية التي قادها، ودخلت إلى العالم مثل «كابوس» كما يصفها الكتاب الذي بين أيدينا. وقد كُتب عن هذه الظاهرة عدد لا يحصى من المقالات والنصوص والدراسات التي من السهل جداً أن تملأ مكتبة مدينة صغيرة.

وبحسب ألبرشت متسكر مؤلف هذا الكتاب، فإن إحدى الباحثات وهي «**هانا لوكه**» رصدت الكتابات الصادرة بالألمانية بين عامي ١٩٧٦ و١٩٩٠ فأوردت ٦٠٤ عناوين، القسم الأكبر منها صدر بعد ١٩٧٩ تاريخ قيام الثورة الإيرانية. وتورد كذلك قائمة تجمع المصادر والدراسات عن الموضوع نفسه الصادرة باللغة الإنجليزية والمنشورة بين عامي ١٩٨٨ و١٩٩٤ وتضم ١٢٤٦ عنواناً. ولكن حتى ذلك لا يعد إلا جزءاً بسيطاً من الأدبيات التي كتبت عن هذا الموضوع. ويعتقد **راينهارد شولتسه** أن المرء سيكون بحاجة إلى سنوات لتحضير لائحة تتضمن عناوين الكتب والدراسات الصادرة عن ظاهرة الأصولية الإسلامية.

وأمام هذا الكم الهائل من الكتب والدراسات يواجهنا سؤالان: هل يحتاج هذا الأمر هذا الجهد كله لفهم ظاهرة «الأصولية الإسلامية» أم أننا أمام تكرار وإعادة تكرار واسعة ومملة؟ في المقابل هل قيل كل شيء عن هذا الموضوع؟

أياً تكن الإجابة، يظل السؤال الأكثر جدلاً هو: «بأي شكل تم تناول الموضوع؟».. بهذه الأسطر يبدأ ألبرشت متسكر كتابه القيم هذا. ومؤلف هذ الكتاب باحث ألماني متخصص في الدراسات الإسلامية، ويكتب للعديد من الصحف الألمانية عن المنطقة العربية. كما أصدر كتاباً عن الأكراد من دار النشر ذاتها التي أصدرت كتابه هذا. إذاً هو الآخر يزودنا الآن بدراسة عن الموضوع الذي تكونت بشأنه جبال من الورق. ويود متسكر أن يكون كتابه هذا بديلاً للمصادر العلمية عن

الأصولية الإسلامية، وكذلك بديلاً للأعمال السطحية التي كتبها صحفيون.

يطلعنا **متسكر** في المقدمة على كيفية معالجة الأصولية الإسلامية في الكتب الألمانية، ويرى وجود الكثير من الدراسات عن شتى جوانب هذه الظاهرة، إلا أن الكثير من هذه الدراسات تبقى مستعصية على القراء المهتمين لكن غير المختصين.

إذا أخذنا الكلمات العربية التي غالباً ما تستعمل في سياق الكتابة كمصطلح: التكفير مثلاً، أو الزكاة، أو الإصلاح، أو الاجتهاد، التي يصعب إيجاد ترجمة مباشرة لها في اللغة الألمانية مع ضرورة التطرق إليها، عندئذ نستطيع أن نتصور السرعة التي يستسلم بها القارئ العادي، ويغلق الكتاب بعد عدة صفحات فقط. وقد هوجم المستشرقون الألمان -لا سيما إبان حرب الخليج في عام ١٩٩١- من أطراف شتى؛ لأنهم امتنعوا لوقتٍ طويل عن الكتابة لجمهور واسع خارج الوسط الأكاديمي. ورغم أن هناك بعض الأمثلة باللغة الألمانية عن كتابات خاطبت شرائح أوسع من القراء، إلا أنها تعد على أصابع اليد الواحدة. إذاً، فإنه ليس من الغريب أن يرجع القارئ الذي يهتم بموضوع الأصولية الإسلامية إلى كتب الصحفيين المعروفين في وسائل الإعلام، ولا سيما التلفزيون «كخبراء» في الشرق الأوسط والإسلام، ولعل أشهرهم وأقدمهم هو «**بيتر شول لاتور**».

ويذكر **متسكر** العديد من الأمثلة للبرهان على سطحية شول لاتور، ويقول معلقاً: إن عيبه الأكبر هو اعتقاده أن كل مشاكل الشرق الأوسط السياسية تعود إلى مشكلة واحدة هي الدين.

ويقول: إن **لاتور** إذا سافر إلى المنطقة العربية، فإنه يحمل معه القرآن والإنجيل ويسعى إلى شرح مشاكل القرن العشرين التي تعيشها هذه البلاد في ضوء هذين الكتابين. والواقع أن تأثير **لاتور** كبير، فقد بيعت أعداد هائلة من كتبه؛ وذلك لقدرته على اللعب بمخاوف القراء، فهو يؤكد للقارئ ما كان يعرفه دوماً: الإسلام دين عنف، ويسعى دوماً إلى توسيع دائرة نفوذه، والإسلام ليس قادراً على الحياة بسلام جنباً إلى جنب مع فئات غير مسلمة.

ويشير **ألبرشت متسكر** في هذا السياق إلى ضرورة إدراك أمرين يُغفَل عنهما أثناء الحديث عن الأصولية الإسلامية:

الأول هو: إنه علينا أن نفرق بين ما يقوله الإسلاميون، وما يطبقونه، أو ما هم قادرون على تطبيقه. **صحيح أن الكثير من الإسلاميين لا يترددون في التعبير عن استعدادهم لممارسة العنف كوسيلة للسيطرة على أعدائهم، أو للدفاع عن**

أنفسهم رغم أن هذا العنف يُفهم دوماً كفعل دفاعي، إلا أننا نقع في فخ التبسيط الشديد إذا قصرنا الأصولية الإسلامية على عنصرها الإرهابي. وبالفعل فإن المجموعات المستعدة دوماً لممارسة العنف كالجماعة الإسلامية في مصر أو مجموعة أسامة بن لادن أقلية، والهجمات التي شنتها ضد مدنيين تُستنكر من قبل غالبية الإسلاميين الآخرين. ومن هنا فثمة ضرورة للتفريق بين الإسلاميين بحسب الظروف السياسية السائدة في هذه الدولة أو تلك. فمثلاً قد يظهر الإسلاميون على الساحة كبرلمانيين (مثلما هو الحال في تركيا أو الأردن)، أو ينشطون في الاتحادات المهنية ويلعبون دوراً مهماً على الصعيد الاقتصادي (مثلما هو الحال في مصر)، أو يشكلون جيشاً للتحرير للقتال ضد محتلين أجانب (مثلما هو الحال في لبنان).

ويرى **متسكر** أن إحدى صفات الأصولية المدنية هي الشبكات الاجتماعية التي يقوم بها أعضاؤها، وتشتمل هذه الشبكات على حضانات للأطفال، ومدارس، ومستشفيات، ومؤسسات اجتماعية أخرى. ويقوم الإسلاميون بذلك بمهام تقع عادةً على عاتق الدولة. ونجد هذا النمط من النشاط الاجتماعي أو السياسي لأنصار الأصولية الإسلامية منتشراً في كل الدول.

ويميل المراقبون الغربيون إلى التشكيك في هذه النشاطات المدنية ويصفونها بأنها مجرد قناع. ويقولون: إن الهدف الفعلي للأصوليين يبقى السعي نحو استلام السلطة لإرساء حكم ديكتاتوري فيما بعد. وإذا اشترك أصوليون في انتخابات ديمقراطية – بحسب هؤلاء المراقبين– فإن ذلك يكون بدوافع انتهازية وليس للاعتراف بالتعددية السياسية. ويقول متسكر: إنه سواء أكانت هذه الحجة في محلها أم لا فإن الصورة تبقى غير واضحة إذا لم ننظر إلى الوجه المدني للأصولية الإسلامية بعين الاعتبار. وإذا حكمنا على هذه الحركة على أساس جانبها الإرهابي فقط.

أما الأمر الثاني: الذي يرى المؤلف أن معظم الكتابات عن الأصولية تغفله، فهو كون الأصولية الإسلامية حركة متجانسة موزعة بشكل متساوٍ على العالم العربي والإسلامي. فالأصولية في كل دولة تختلف عن الدولة الأخرى حسب الظروف التاريخية والسياسية، والجغرافية، والاجتماعية الخاضعة لها. فلا يمكننا أن نطلق حكماً عاماً على الأصولية الإسلامية بأنها حركة إرهابية أو خطر علينا وتجاهد من أجل السيطرة على العالم. يمكننا أن نحكم على هذه الحركة فقط إذا وجهنا الأنظار إلى خصوصيات الحركة في هذه الدولة أو تلك.

وهذا ما يود الكتاب القيام به. بعد تقديمه لمحة عن خلفية الأصولية الإسلامية وتطورها في العقود الماضية، يركّز متسكر على خمس دول كأمثلة لإيضاح الاختلافات الكبيرة الموجودة على الساحة الإسلامية. وقد اختار لذلك مصر وفلسطين والأردن ولبنان واليمن. ويقول الكاتب: إن اختياره لهذه الدول مبني على معرفته بها من أيام الدراسة، ومن الزيارات العديدة التي قام بها إلى هناك. ولكن إضافة إلى هذا الدافع الخاص، فإنه يعتقد بأن هذه الدول بالذات تعد نماذج للتطورات التي من الممكن أن تشهدها الأصولية الإسلامية، ومن الممكن في ضوء هذه الأمثلة التوصل إلى استنتاجات عن التطور العام لهذه الحركة.

ويشير **ألبرشت متسكر** إلى أنه قام بأكثر من سبعين مقابلة في الدول المذكورة، واقتبس فقرات منها في كتابه؛ وذلك لكي يعطي للقارئ انطباعاً عن تفكير الإسلاميين أنفسهم والأشخاص الذين ينتقدونهم. ويتطرق **متسكر** إلى السياسة الأوروبية والأميريكية تجاه الشرق الأوسط، ويقول إن الدول الغربية تتحدث عن الديمقراطية التعددية السياسية، إلا أنها عملياً تدعم دكتاتوريات عربية (بما في ذلك دول الخليج كالمملكة العربية السعودية التي تصف القرآن بأنه دستورها وترفض حتى اليوم التوقيع على ميثاق حقوق الإنسان للأمم المتحدة)؛ لأنها تتناسب مع مصالحها فيما يتعلق بأهم موضوعين بالنسبة لها في المنطقة: البترول وإسرائيل. الغرب مستعد من أجل ضمان أمن إسرائيل ومن أجل ضمان توريد النفط إليه أن يبذل طاقات سياسية وعسكرية ضخمة؛ أي أن الغرب يتحمل أيضاً مسؤولية الأوضاع السائدة في الشرق الأوسط. رغم ذلك أو بسبب ذلك يدعو الكاتب إلى الحوار بين الغرب والإسلاميين من أجل إيجاد حلول للمشاكل التي يعيشها العالم العربي.